

الأدب في مصر

لمحاضرة الدكتور أحمد ضيف بك وكبير داء العلوم

وأستاذ الأدب بها

أدب كل أمة صورة لحياتها النفسية والسياسية والاجتماعية ومالديها من ثقافة وحضارة . ولاشك في أن لنا ثقافة و حياة اجتماعية وعتلية تمثل عاداتنا وأخلاقنا وعقائنا، وتظهر في فنون الكلام وضروب التعبير وفي كل آثارنا الفنية. ولكن هل هذه الثقافة ثقافة مصرية نشأت في مصر ؟ وهل عقائنا وحياتنا الاجتماعية مصرية خالصة ؟ وهل فنون الكلام البليغ والشعر الفصيح فنون مصرية حتى يقال أن لنا شعرا مصرية وكتابة مصرية وخيالا مصرية وثقافة مصرية وحتى يتبين أن هناك فرقا بين أدبنا وآداب الأمم الإسلامية الاخرى ، كما أن هناك فرقا بين الثقافة اللاتينية والجرمانية مثلا ، أو بين الأدب الإنجليزي السكسوني والأدب الفرنسي اللاتيني ؟

إذا كان لنا ثقافة خاغة وأخيلة خاصة وبلاغة خاصة ومذاهب خاصة في الأدب والنقد كان لنا أدب مصرية خاص . ولكن ثقافتنا ليست ثقافة محلية أو ليست ثقافة مصرية خالصة بل هي ثقافة عربية إسلامية متفتح العرب مصر إلى ما قبل قرن من الزمن حين اتصلنا بالثقافة الأوروبية الحديثة فامتزجت الثقافتان لدى طائفة من قادة الفكر وأصحاب الرأي لدينا .

أما ثقافتنا القومية العامة فكانت - ولا تزال - عربية إسلامية لأننا تعلمنا علوم العرب وأخذنا كل شيء عن العرب الذين « عربوا عتول الأمم التي فتحوها

بلادها وغيروا معالم الحضارة القديمة فيها بقوة سلطانهم وعقولهم ونشر دينهم، وتعصبتهم لقوميتهم، فصبغوا عتول هذه الأمم بصبغتهم العربية الإسلامية حتى فى بلاد إسبانيا وجزر البحر المتوسط التى كانت متأثرة قليلا أو كثيرا بالثقافة اللاتينية واليونانية. ولم يكذب تأثر آدب العرب بشئ من عادات هؤلاء الناس أو بثقافتهم. فإنك تجد الآدب فى بلاد المغرب هو بعينه آدب العراق والشام ومصر وبلاد الأندلس اللهم إلا ما حدث من بعض الأخيلة الجزئية والتأنيق فى الصناعة اللفظية مما لا يعد أدبا جديدا ولا موضوعا جديدا ولا مذهبا جديدا فى الآدب؛ لأن موضوعات الشعر بقيت واحدة كما كانت فى بغداد وبلاد الشام وجزيرة العرب: من مدح وهجاء ونسيب إلى آخره. وإذا كان هناك اختلاف فى أساليب التفكير وأساليب الصناعة فقد كانت نزعات فردية سائرة على حسب الأهواء والميول الشخصية للأدياء والشعراء. فتجد فى العصر الواحد والبلد الواحد جملة من الشعراء والكتاب، كل له طريقة خاصة وأسلوب خاص فى الصناعة لا غير. أما الموضوعات وطرق التفكير وما يتصل منها بالحياة العامة فكانت متشابهة كل التشابه، فقد كان يرجع بعضهم إلى بعض فى ذلك ويأخذ بعضهم عن بعض المعانى والأخيلة ويتبارون فى الصناعة لا غير. حتى فتح النقد بابا واسعا سموه «باب السرقة» وكان الروح السائد فى الآدب العرب هو مجازاة الشعراء والكتاب للعرب الأول فى أساليبهم، فجعلوا هؤلاء المتقدمين نموذجا لهم فى كل شئ ووضعوا قواعد النقد على مجاراتهم. حتى عابوا على المتنبي وأبى العلاء طريقة التفكير لديهما؛ لأنهما صبغا شعرهما بصبغة غير عربية أو بصبغة فلسفية كما يقولون. وأصبح الشاعر المقدم على غيره من يجيد محاكاة الشعر القديم فى جميع نواحيه. ولم يقتصر ذلك على قطر من الأقطار بل عم جميع الأقطار الإسلامية.

ولذلك انطلمست الصبغة القومية المحلية فى الآدب العربى ولا سيما الشعر،

حتى صار الأدب العربي الفصيح من حيث الصفات العامة واحداً في كل مكان وفي كل زمان . وإذا كان هناك شيء مبتكر حدث في أحد البلاد كالمقامات أو غيرها مما أنبته بيئة خاصة — حاكاه الكتاب في بلد آخر في موضوعه وفي أسلوبه ولم يحدث شيء جديد غير معروف عند العرب سوى ما كان من القصص على أثر ترجمة كليلة ودمنة وألف ليلة وغيرها، وأكثر ذلك يحسب من الأدب العامي الملحون .

ولقد جمع الثعالبي في كتابه « بقيق الدهر » طائفة من الشعر والنثر الجيد في مختلف البلدان العربية والجماعة من فحول الشعراء والكتاب . فإذا قرأته فأناجد عليم بأنك لا تفرق بين شعر وشعر، ولا بين شاعر وشاعر من حيث الدلالة على الصبغة القومية أولون محلي كما يقولون .

ولا تنس أنه عندما اكتسح التار بغداد هاجر الشعراء والأدباء إلى الأقطار الإسلامية ولا سيما مصر، ونشروا شعرهم وأدبهم، وحاكاهم الأهلون في ذلك . فكان ذلك كله شعراً عربياً وأدباً عربياً، لا شرقياً ولا غربياً، ولا بغدادياً ولا مصرياً وأصبح هؤلاء الشعراء شعراءنا وشعراء البلدان الأخرى التي نزلوا بها . ذلك لأن الأدب العربي الفصيح في جملة كان بعيداً قليلاً أو كثيراً عن المسائل العامة القومية . أو أن المسلمين جميعاً كانوا يعتبرون كل بلد إسلامي وطناً لهم، وكل مسلم من قومهم، ولأن المسائل الاجتماعية القومية كثيراً ما كانت بعيدة عن موضوعات الشعراء والأدباء؛ لأن الشعر كان مدحاً أو ذماً أو رثاء يعبر عن حالة نفسية خاصة .

كذلك كانت الحالة العامة للأدب العربي في جميع الأقطار الإسلامية . ومصر من بين هذه البلاد لم يكن لها أدب فصيح خاص ولا ثقافة خاصة تظهر في الشعر أو النثر، بل كان كتابها وشعراؤها يتبارون في محاكاة الشعر القديم والكتابة القديمة حتى الزمن القريب .

ونذكر على سبيل الاستشهاد . حفي بك ناصف والسيد توفيق البكري
وحفي إبراهيم بك الموليحي وابنه .

وقد مدح المرحوم مصطفى المنفلوطي الشيخ محمد عبده في نحو سنة ١٩٠٥
بقصيدة تحسب من الشعر البدوي الصميم قال فيها :-

سقاها غيا تربها وابل القطر وإن أصبحت قفراء في مهمة فقر
طواها البلى طى الشحيح رداءه وليس لما يطوى الجديدان من نشر
مرايض آساد ومأوى أزانم تجاوز في قيعانها الفيل بالجر
فأنشأت أبكى فالأسى يتبع الأسى إلى أن رأيت الصخريكي إلى الصخر
فهل تجد في ذلك شيئا من الصبغة المصرية . ألسنت تنسم ريح الصحراء
في هذا الشعر . ولانكاد نجد صبغة محلية في الأدب إلا في وصف بعض
الشعراء لبعض الأما كن كوصف النيل والهرم وأبي الهول . فإذا كان هذا
يعد من الشعر القومي فإن وصف الشعراء أو الكتاب للبلاد التي يطوفون
ربوعها يعد شعرا قوميا محليا . وإنما يحسب وصف كاتب فرنسي لمصر أدبا
فرنسيا ، لأنه كتب ذلك بلغة فرنسية وعبارات ولهجة فرنسية ، أما وصف الشاعر
العربي العراقي مثلا لمصر فلا يعد أدبا مصريا لأنه كتبه بلغة العرب التي تحسب
عباراتها واحدة في كل زمان ومكان . فلا تظهر فيها صبغة خاصة قومية .
ولا يحسب وصف الشيخ حسن العطار - المصري الذي كان شيخا للأزهر -
لربوع الشام شعرا شاميا بل هو شعر عربي .

وإنما الأدب القومي هو ما يصور النفوس والعادات لأمة من الأمم على
أن يكون قائله من أهل ذلك البلد ليرسم حياته وحياة قومه الاجتماعية
والسياسية . ويمتاز الأدب القومي باللهجة الخاصة القومية والعبارات الجارية
على ألسنة هؤلاء الناس ، إذا كانت هذه حال الأدب العربي في جميع البلاد
الإسلامية . ومصر أحد هذه البلاد التي تربطت فيها دعائم الثقافة العربية . والأدب

العربي . فليس لها أدب خاص فصيح يمتاز عن الأدب العربي في البلاد الأخرى . وإذا كان لمصر أدب خاص أو صبغة خاصة في الأدب فإن ذلك أظهر ما يكون في الأدب العالمي الذي انتشر في القرن التاسع عشر ، وفي بعض كلام شعرائها وكتابتها الحديثين .

كان الشعر في مصر إبان القرن التاسع عشر كما كان في جميع الأقطار العربية محاكاة للقديم وجرياً على أساليب شعراء العصور المتقدمة في الموضوعات التي عرفت : من مدح وذم ونسيب ووصف وغير ذلك . حتى لم نجد نجد من بين شعراء هذا العصر الأخير إلا من يعتمد إلى رصانه الشعر القديم فيقلده وإلى أسلوبه المتين فيحاكيه وإلى الأخيلة المعروفة فيقتبس منها . وكادت تكون هذه الأساليب كل أغراض الشعراء من قول الشعر . فلم يكن الشعراء أكثر من صناعة من الصناعات اللفظية ؛ لا شعوراً ولا أثراً من آثار إلهامات النفوس ولا صورة من العصر والاجتماع الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء . ولم يكن هناك وسيلة للفرقة والتميز بين شعراء مصر وغيرهم من الأقطار العربية الأخرى كما بينا ذلك .

وساز الشعراء عندنا على هذا المنوال بدون أن يكون لديهم أثر جديد في الشعر ، ولا صبغة مصرية اجتماعية كما كانت الحال قبل ذلك في عصر المماليك والعصر العثماني .

وفي منتصف القرن الثالث عشر الهجري والقرن التاسع عشر الميلادي ظهر الشيخ رفاعة الطهطاوي بعد أن عاد من البعثة التي أرسلها محمد علي باشا إلى باريس ، نحاول إدخال نوع جديد في الشعر المصري ، إذ تعلم الفرنسية ودرس آدابها ، وأزاد محاكاة بعض الشعراء هناك ، وكان من أول آثاره في ذلك أن نقل قصيدة المارسييز الفرنسية إلى العربية في شعر ، تصرف فيه بعض التصرف ، حيث قال :

حيث قال :

فها يا بنى الأوطان هيا فوق فخاركم لكم تها
أقيموا الراية العظمى سويا وشنوا غارة الهيجا ملنا

عليكم بالسلام أيا أهالى ونظم صفوفكم مثل اللالى
وخوضوا فى دماء أولى الوبال فهم أعداؤكم فى كل حال
وجودكم غدا فيكم جلياً

فماذا تبتغى منا الجنود وهم جمع وأخلط عييد
كذا أهل الخيانة والوفود كذاك ملوك بغى لم يسودوا
تعصمهم لنا لم يجد شيئا الخ...

وقد جرى على هذا الموال فى إنشاء أناشيد وطنية مصرية ومدائح لحكام
مصر مزجها بذكر مجد البلاد ، ومن ذلك منظومة طبعت بمطبعة بولاق سنة
١٢٧٢ من الهجرة — قال فيها يمدح فيها سعيد باشا الخديو .

بشرى لمصر سعيدها بالعز لاح وسعيدها بالفوز ساعده الفلاح
أبناء مصر نحن موطننا أصيل حسب عريق زانه مجد أثيل
ونفارنا فى الكون جل عن المثل لرحابنا تطوى المهامة بالطلاح
بشرى

نحن السراة وشأنا حب الوطن ولشأنا السامى نزاحم من قطن
شأنى حمانا ليس من أهل الفطن فهو الدعى وعرضه شرعاً مباح
بشرى

وطن عزيز لايهان ولايضام وحي تعزز من علا عليه حام
مجدله لازال يخبترق الغمام عين السها لفخاره ذات التماح
بشرى

يا أهل مصر بر مصر فرض عين في البر نبذل عن رضا نفساوعين
وإذا الرقيب رثاها بلحاظ عين ما عندنا في فقها إلا الرماح

بشرى

الخ مقال

فكان الشيخ رفاة من المجددين في الشعر المصري على هذا النمط ، وكان
يمكن أن يكون لهذا الغرض الجديد من الشعر وأمثله — مما يعبر عن الحياة
المصرية من بعض وجوهها — أثروا أن الشعراء نسجوا على منواله وساروا في
هذا الطريق الجدى القومى لرسوا لنا الاجتماع المعصرى، وتركوا المدح وما يتبعه
من ملق ورياء — ولكن الحركة الأدبية، كانت حركة فردية، كما قلنا فلم تسر
الروح القومية في نفوس الشعراء جميعا. ولكن الصيغة المصرية أخذت تدب في
نفوس الأدباء منذ أن ثارت نفس محمود سامى البارودى لأنه رسم في شعره
صوراً من الحياة النفسية المصرية لتأثره بحوادث مصر السياسية والاجتماعية،
فأثارت في نفسه التعبير عما يحول بها، فرسم ذلك في شعر عربى فصيح جارى
فيه القدماء فى أساليبهم الرصينة، فكانت أول خطوة فى الأدب المصرى
خطاها سامى البارودى وتبعه بعد ذلك غيره وقد تأثر النثر البليغ أيضا بالاجتماع
المصرى، وأخذ الأدب يتطور من أثر انتشار الروح الوطنى ومحاكاة الأمم
الأوروبية فى ذلك وكان لإسماعيل باشا صبرى وأحمد بك شوقى وحافظ بك إبراهيم
وغيرهم من جاراتهم أثر فى هذه الحركة الأدبية الأخيرة وتمصير الأدب العربى
قليلاً أو كثيراً. ولكن أكثر ما كان الأدب المصرى ظهوراً فى تلك الحركة
التي ظهرت منذ حكم إسماعيل باشا وإبان ظهور الحركة العرابية الوطنية على
أسنة بعض الكتاب والشعراء فى أزجالهم العامة ومقالاتهم النثرية العامة
أيضا التي كانت تكتب فى بعض الصحف، وقد نشر هؤلاء الكتاب مقالات
عبروا فيها عن الأفكار العامة وصوروا الاجتماع المصرى وما يحول به فى

أزجال شعرية أو أحاديث نثرية ، ووضعوا ذلك في عبارات فنية لا تقل بهجة وجمالا عن ذلك الشعر العربي الفصيح .

وقد كان هذا الآدب العامي يمثل الاجتماع المصري تمثيلا صحيحا ويصور أخلاق المصريين . فقد كانت الحالة الاجتماعية منذ استولى محمد علي على مصر في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين متأثر بأحوال سياسية بعضها كان عالميا بالنفوس من عصر المالك ذلك العصر الاستبدادي الذي ولد في الشعب المصري الخنوع للحاكم خروفا من بطشه والتهكم عليه وعلى أعوانه والاستسلام للقضاء والاستهانة بأهوال الحياة وتحمل الظلم على أنه قضاء من الله والتسلي عند الآلام بالتهكم والسخرية والرضا بما ينال الإنسان في عيشه حتى أصبحت هذه الصفات عامة في المصريين ، وكانت أكثر ظهوراً في سكان القاهرة الذين كانوا متصاين بالحكام وعلى كنب من أعمالهم ، وكان لتبسط بعض الحكام في الحياة والإفاضة على العامة بالأموال أن ظهر بعض الأدباء والشعراء والمغنين في هذا الميدان . كالشيخ علي الليثي وعبد الحمولي وغيرهما حتى سرى في البلد روح فني أدبي ، وعلى أثر ذلك انتشر في النفوس نوع من السرور والميل إلى التهكم والتدخول والفكاهة العذبة ، فوافق ذلك الخلق المصري في جملته ، لأن المصري خفيف الروح يميل إلى « التنكيت والتبكيك » فكذلك المجلس يمزج الهزل بالجد في حديثه حلو المعاشرة كثير الضحك بعيد أحيانا عن النظر في المسائل الجدية ، كثير التسامح ليس الجانب . حتى لقد يقابل كلمة السوء تصديه من عذو يريد أن ينكل به أو صديق خبيث يريد أن يهزأ به بقهقهة (أو بنكتة بلدية) أو بفكاهة ظريفة ، ولقد يكتفي بالتهكم والسخرية لإظهار ألمه ويبتلع الكلمة المرة التي يعص بها غيره . وربما حمله الحياء أحيانا على أن يبق على غيره وإن أساء لأنه صفوح عن الإساءات ، به كثير من « السذاجة » الفطرية التي قد تتغلب على قوة عقله وحضور ذهنه ولباقة لسانه لأنه طيب

القلب، كريم النفس ضعيف الإرادة يحترق نفسه أحياناً، ومن هنا كان كثير التسامح. كل هذا ظهر في تلك الأزجال والأحاديث العامة التي تمثل حقيقة تلك الناحية الاجتماعية والفكرية في مصر، وقد انتشر ذلك على لسان الشيخ حسن الآلاتي في أحاديث عامة كتبها في كتابه المعروف، وعبد الله نديم، والشيخ القرصى والشيخ النجار. وقد امتلأت الصحف اليومية إذ ذاك بهذا الأدب العامي. وظهر بين ذلك أدب لم يكن معروفاً قبل ذلك العصر وهو تلك القصص التمثيلية المصرية المكتوبة بلهجة قريية من لغة العامة، وأول من ابتكر هذا النوع عبد الله نديم في روايته «الوطن والعرب» كما كتب مقالاته بلغة قريية من اللغة العامة في صحفه مثل «مصرى تفرنج» وغيرها من هذا النوع، وصف فيها الرذائل الفاحشة ونقد أحوال الاجتماع وغيرها.

هذا في جملة ما يسمى بالأدب المصرى إذا صح لنا إطلاق الأدب على نوع من الشعر العامي والكتابة العامة، وقد يدخل هذا في تاريخ الأدب القومي، ولكنه لا يدخل في تاريخ الأدب الفصيح. ونعود فنقول إن الصبغة المصرية في الأدب العربى ليس لها أثر ظاهر إلا في بعض القصائد والمنشآت التي كتبت أخيراً في أقلام البارودى وشوقى وحافظ والسيد توفيق البكرى وحفنى ناصف وإبراهيم المويلحى في كتابه «حديث عيسى بن هشام» والآن تظهر على شبا أقلام بعض كتابنا الحداثيين المعاصرين.

أحمد صيف